البراءة

ابتسامة الجنرال والزورق والدعوة . الابتسامة غير بعيدة على مرمى البصر ، والدعوة قائمة ومستمرة ومتجددة ، كرياح ناففة دائمة الهبوب . الزورق تتلاعب به المياه ، تعلو به موجة ، تنخفض به موجة . بإغراء كبير يتلاعب ، الابتسامة غير واسعة ، وكأنما بالإرادة محددة الحجم ، مضبوط ارتفاع شفتها العليا . مقاس تأثيرها بدقة زائدة . الجنرال سمين أكثر مما يبدو فى صوره بالصحف ، واقف يتمشى ، راض عن الدنيا تماما . صلعته الأمامية تلمع بحبيبات عرق تحت ضوء الشمس . الشمس حارة لكنها غير لاسعة ، فى الحقيقة مبتسمة تلف الجو كله بروح الإغراء والدعوة . عصا الجنرال تحت إبطه ولكن ثيابه مدنية . وقميصه صيفى بنصف كم . البقعة السوداء التى

تحجب عينه من فرط الرضا المبتسم والوجه المكتنز قد اختفت أو كادت . فى الحقيقة لا ألحظها . لا أرى أظافر ، أو رؤوس حراب أو خناجر غدر . الجمهور على المرسى الخشبى القديم ، متدلى الرؤوس من فوق الحاجز ، يتطلع ساكتا سكوت الدهشة ، سكوت حب الاستطلاع ، سكوت يوم الدين ، ولكنه سكوت عظيم . الجنرال الأمر ما ، لخاطر ما ، ضحكة فقط فتحت فمه ، أسنانه تبدو قديمة منفرجة ، متسخة قليلا ، ولكنها بلا أنياب ، بلا أنياب .

ابتسامة الجنرال والزورق والدعوة ، وعبرت . كيف ؟ لا أعرف . على ماء كالحرير ، أو حرير من الماء ، عبرت ، بالنزوة ، بالتلقائية،بالرغبة ، عبرت . هببت . كما تهب النسمة فى الاتجاه المضاد ، هببت . أصبحت هناك . اهتزت أهداب العين الواحدة فى ترحاب وقور . الابتسامة أضيف إليها طعم الاكتفاء . عصا الضباط العظام تراخت تحت إبط لم يعد مشدود العضلات . لم تمتد يده تصافحنى . فى وجهه تعبير من لا يريد إحراجى ، من يعرف أنى لن أصافحه . أنا فقط أريد أن أرى ، مجرد أن أرى وأتفرج عن كثب أشاهد ، والرؤية ليس فيها دنس . نظيف أنا مثل (بفتة المخلة) البيضاء . كيف أصافح وأيديهم ملأى بالحيات والثعابين

والعقارب ؟ أنا متأكد أننى لو مددت يدى، وصافحت ، لالتصقت باليد التصاق الأبد، ولا أعود أستطيع الانفصال . للفرجة جئت ، وعلى الضفة الأخرى كنت أتفرج . والآن ، عن قرب أفعل . فماذا يضير ؟ ماذا يضير ؟

أتجول ، وفوق الشاطئ الرملى أقدامى تتحرك ، خفيف الوزن كأنى هبطت فوق القمر ، هبطت فوق الوجه الآخر للقمر . الشمس تماما غير مباشرة ، نورها يأتى ، ضعيفا واهنا ، كنوز الغسق ، من كل اتجاه يأتى ، وإلى كل اتجاه يمضى ، فلا يبقى إلا أثر الغسق .

كل شىء على الشاطئ هنا . المدن صغيرها وكبيرها هنا . البلاجات ، المواخير ، وحتى مصانع الأسلحة السرية هنا . لا أحتاج إلا لخطوة واحدة ، فيتغير الزمن ، ويتغير المكان . الجنرال أشعر به من بعيد يراقبنى . كان من واجبه مصاحبتى . ولكنه تأدبا أراد لى أن أكون بمطلق حريتى . وأن أفعل ما يحلو لى . لا تتأثر إرادتى حتى بمجرد قربه أو وجوده . ولكن عينى الخلفية تحس به يحرك رأسه أنى أتحرك . ابتسامته لا تتغير . أم غير مكترث بالمرة .. عصاه تحت إبطه ، رأسها كالبوصلة يتحرك ، يتعقبنى ، يحرك الأشياء أمامى ،

الزمان والمكان والمشهد . رأس العصا ليس مندمجا فى غلظـة أو وضوح إنما هو ، كوجه الجنرال ، ينسكب انسكابا متسقا مع بقية الجسم .

من الغمام الغسقى برز وجه سيدة . أمامى منحنية قليلا وقفت . جيدا لم أتبين الملامح . هل كان لها رأس حقا ؟! إنها بالتأكيد سيدة . تكلمت عاما ، ربما عامين ، ولكنى لا أريد أن أسمع ، أخرجت من حقيبة يدها ، التى تشبه حقائب الدبلوماسيين ، أصبع روج . لفت قاعدته ، فانبثق من فتحته بدلا من الروج ماركات ألمانية حقيقية . آلاف الأوراق . كل ورقة بألف مارك . لفته مرة أخرى انبثقت دولارات، ليرات ، دينارات ، ورقات بعشرات الجنيهات أشَحت . أغلقت الأصبع . قدمته بلطف زائد . أشَحت . الجهد عجيب . ولكنى أشَحت . تفرجت وأشَحت . بعينى الخلفية أحسست بأثر شعاعى كومضة البرق . ومن عصا الجنرال صدر . اختفت وبمجرد خطوة أخرى ، وجدتها تنتظرنى . ليست فقط بملامح أنثويـة واضحة ، ولكنها بالملامح الأنثوية التى أريدها . الوجه طويل ينتهى بذقن يتوسطها طابع الحسن ، عميقا كالسرة . الشعر طويل ومتهدل ومفروق وكأنما منذ أن نما . من الوسط يتهدل ، ويغطى الأذنين ،

ويغمر الأكتاف والصدر . الشفتان قطعا لشابة فى السابعة عشرة . شفاه جربت لابد القبل . ولكنها لم تمتهن بعد ، بأغلى القبل . العيون واسعة ، ومليئة بالغريزة المشعة ، والرموش طويلة تكاد تبين كل رمش منها نافر وحده كسلك الشمسية . رموش برية ، بركانية ، كأنما فجرتها بغزارة طبيعية أم بدائية . قبل أن تكلمنى سمعتها ، كالسائح المغامر قررت أن أسمعها ، وأيضا أصافحها . أعرف تماما أن يدى إذا لامست يدها ، فمحال أن أستردها .

كالسائح رحت أسمع . وكالرجل الذى بدأ يدمدم فيه البرق رحت أرى . آذانى بدأت تنجذب بقوة . والبركان فى بدأت دمدمته تقل ، وتهدد بأن تهدأ . ثاقب كلامها . عقلها يبهرنى ، يبلغنى يغرقنى فى فيض من رؤى الحياة . أتأملها فأشعر كأنى ما عشت الدنيا أو مارستها . مدمر منطقها . مخى أراه رأى العين نسيج عنكبوت تعبره آلاف من ذرات الكلمات الذكيات ، وعيى يزداد إلى درجة جاوزت حد الخطر . كنت واثقا أنى فى اللحظة الفاصلة أستطيع أن أكون السيد والغالب . والمهدم بضربة كل ما شيدته فى عقلى من أوهام . ولكن رعبى أنها أصبحت أصلب من الحقائق ، وأدرك أنى حالا ، وبعد ثانية ، ومهما هويت ، فلن أهدم شيئا .

وفجأة ، من الأعماق البعيدة ، انتفض صوت النذير ، وخطوت غضبا خطوات ، مقررا بلا رجعة أن أعود . لقد جئت أتفرج . فجأة أيضا ظهر الجنرال . أمامى وقف . الابتسامة هذه المرة ابتسامة اعتذار واضح . مد يده ، بلأدق ، حرك يده حركة تصلح أن تكون مشروع مصافحة . لا يا جنرال حتى أنت لا أصافحك ، بذكاء شديد أدرك ، بذكاء أشد تحولت همة اليد إلى حركة لبقة داعية أن أتقدم . رحت أجمع نفسى ، وألتقط أنفاسى ، وأرفع القدم وأبدأ أتحرك .

طابور طويل ، قادم من بعيد ، من أبعد ، وكأنما يبدأ أوله عند الأمس ، وقبل الأمس ، ومئات السنين . طابور عليه مسحة الحزن الذليل . بنات وسيدات ، مسنات وصبايا فى الثالثة عشرة ، بيض وحمر ، وسمر وصفر ، شاحبات . أمامى تتردد الواحدة ، بانكسار تنتظر . بانكسار ترفع الرأس . بأهداب منكسرة تنتظر الرنا . بعيون فيها الحزن الرقيق تتمنى . الأسى أنثوى ويضفى على المرأة أنوثة . وليس أكثر أنوثة من الحزن إلا الصبايا الحزانى . الأسى لا يستثير الشفقة . إنه يستثير الفحولة . اختر ما تشاء . أمامك المائدة حافلة . أمامك . خبرة المدربات أمامك . خجل ربات البيوت أمامك .

الأرامل الفتيات أمامك . الفقيرات الجميلات أمامك . يكفى أن تلمس الواحدة فتذوب أمامك . تغوص فى مياهها الأنثوية . وتسبح فيها ، وتعبث كيف تشاء ، وأنى تشاء . يا للغلالات السوداء الرقيقة ، حتى الرخيصة منها ، وهى تنزاح وتتمزق عن اللحم الأبيض ! اللحم الشهى الشاحب الأبيض . يا للوجه المتكسر أسى وهو يموء نشوة وإحساسا بالرجل . يا للدوائر الثديية البنية ذات السيقان الوسيطة المبتورة ، وهى تثور وتتمرد على تهدلها الحزين . يا لعواء يأتى من شعر تحت الإبط ، ذى العرق اللؤلؤى المنسال الخاص ، كل نقطة منثالة منه تحمل كل رائحة الأنثى وغريزتها . يا للحزن حين يستحيل بتأثيرك تهتكا وفجرا ، وأمامك الطابور . اختر ما تشاء ، بأصبعك أشر ، مجرد أن تشير . بإرادتك جرب ، مجرد أن تختار . برغبتك ، حتى بمجرد انبثاق الرغبة فى أعماقك الباطنة ، جرب . والجنرال هناك ، لا أعرف له مكانا على وجه التحديد ، وكأنما هو يختار دائما أن يكون حيث لا أراه . هناك هو بالتأكيد ، بنظراته يطبطب على كتفى مشجعا داعيا مباركا ، حتى لو اخترت ابنة العاشرة سيبارك الاختيار . اللمس ، مجرد اللمس أصبح مغريا إلى حد مستحيل المقاومة . ولكنى خائف خوف الموت أو المس .

أعرف ومتأكد أنه بمجرد اللمسة سيصبح الطابور كله لى ، والطابور طويل طويل ، والنساء كثيرات ، متباينات ، حتى بكل أساهن الجنسى الخاص . أصابعى تأكلنى . الرجل فىّ يعوى وأنا كالصخر الثابت أتفرج . والفرجة ليست دنسا ، وقلبى نظيف كبفتة (المحلة) البيضاء الرغبة فى صدرى مكممة الأفواه ، مكتفة الأرجل والسيقان . مخنوقة تماما لا تملك أن تعبر عن نفسها أبدا . أخاف حتى مجرد أن أعبر عن نفسى . فبمجرد التعبير سأبدأ أنهار . الطابور يختلط . الألوان تفرز الألوان . النسوة الكثيرات يستحلن إلى غابة . الألوان زاهية زاعقة ، كبالونات الأعياد تنهمر . الثوب يختصر إلى المينى جيب والميكرو جيب واللاجيب ، السيقان أصبحت مصنوعة ومضبوطة على أدق مقاييس الجمال . الساق منها أنثى كاملة . مصنوعات فليكن . وليكن الإنتاج (ماس برودكشن) . الباروكات أجمل من الشعر الأصيل ألف مرة ومرة . العيون الصناعية احلى وأروع من الطبيعية مليون مرة . وحسبها وكيفما تريد . يابانية ضيقة ، وصينية معوجة ، وأميركية واسعة ، وعربية سوداء ، وإنكليزية زرقاء ، وخضراء وبنفسجية . المصنوعات يرقصن . بنطلوناتهن محزقة . البلوجنز يفتك بالنظر . تقشعر له العين ،

وتنتصب له الرموش قبل أن يقشعر الجسد . الرقصة أمامي تحدث . الوسط يتلوى ، بكل التواءة وسط تقول خذنى . السيقان تتشنج ممدودة تجأر ، مكنونة تستجير . الأكتاف تهتز ، تضيق ، تتسع ، تنادى ، تقبل ، تدبر كى تقبل أكثر . الشفة السفلى تتدلى ، تسترخى تنقبض . الفم يضيق ضيقا داعرا مجنونا . أنا يا عم أتفرج . أموت رغبة ، تقتلنى الرغبة ، ولكنى لن أفعل إلا أن أتفرج . لقد جئت فقط كى أرى وأتفرج . يا جنرال أعرف أنك خلفى وأنك تراقبنى وأن برأس عصاك إشعاعا ، يخضع الأشياء لكل ما أتمنى وأرغب ، ولكنى سأظل أتفرج .

بل لم يعد فى طاقتى البشرية ، أن أبقى ، وأن أتفرج .

الزورق وقهرى للابتسامة والدعوة على وجه الجنرال تودعنى ، مشفقة لغبائى ، ساخرة . هزة الرأس أسفا ، بعيونى الخلفية أراها مودعة . الزورق يتحرك . أحس الآن بحركته ، وبالزمن بدأت أشعر . أنا ألهث ، مستريح الضمير ألهث . كمن نجح فى امتحان شديد القسوة . ومستريح الضمير . لم ألمس . لم أتدنس . طول الوقت أتفرج . بقيت نظيفا كبفتة (المحلة) البيضاء ، كضمائر الناس الكثيرين المتزاحمين ، على شاطىء ، فوق المرسى ، أتفرج .

أعناق مدلاة فوق الحاجز وسكون . سكون حب الاستطلاع ، سكون الفرحة ، سكون يوم الدين ، ولكن إلى نفس السكون العظيم أعود .

ولكن شيئا جديدا ، لم أتوقعه أبدا ، تحته ، هناك ، وغير بعيد عن مكان المتزاحمين فوق المرسى القديم ، تحته . ابنى ، حافى القدمين فى جلباب النوم ، واقفا . شعره مشعث . ملامحه فيها جمود المستيقظ لتوه من غفوة ، وكان ناحيتى ينظر . إلىّ ينظر مرة وإلى المتفرجين المدلاة أعناقهم مرة ، شاحب الوجه ، رفيعا ، نحيف الساعد ، ولكن فى ثبات ينظر . دهشت . جعلتنى الدهشة الأولى أحبه أكثر . إنه ابنى . دمى أنا ولحمى . قطعة منى قد انفصلت ، وأصبحت كائنا مستقلا فاتصلت بى أكثر . كائنا له وجهه الخاص ، ورأسه الخاص ، وساعده النحيل الخاص .

وصل الزورق ، يهدر . لأمس الخشب القديم ولكنى لم أغادره . النظرة الكامنة فى عينى ولدى ثبتتنى فى مكانى. لا ذرة بنوة واحدة ألحظها فى النظرة . ماذا حدث ؟ تحرك ساعده . امتدت يده إلى فتحة الجلباب . خرجت اليد قابضة على شىء معدنى أسود . كان مسدسا . حسبته لعبة أطفال . ولكنه كان مسدسا رجاليا كبيرا .

ماسورته بطول الساعد الناحل . مسدس حقيقى له فوهة . والفوهة تتحرك ، لتصبح دائرتها السوداء موجهة إلى صدرى مباشرة . بالضبط إلى مكان القلب من الصدر . تعلقت نظرتى مستغيثة بكل ما لى فيه . لم تجب استغاثتى بادرة . الوجه قاض ، والنظرة جلاد ، والفم يتمتم بالحكم . لا . أنا لم ألمس يا بنى شيئا . يا مجنون . كنت مثل هؤلاء جميعا أتفرج . ارجع . لا تكن مجنونا . ما الجريمة أن أقف وأتفرج ؟ قلبى نظيف كبفتة المحلة البيضاء . كقلوب هؤلاء الناس ، و لم أفعل إلا التفرج . ارجع . أرجوك . أستحلفك . اعقل . فكر . ما الجريمة يا أحمق أن أتفرج ؟

التمتمة تكف . الشفاه تنطبق فى إصرار . الدوى . ارتعاشة اليد . الرصاصة فى كتفى . الدمعة ألمحها تترقرق فى عينه . الرصاصة الثانية كالكتلة تدك صدرى . دويها لا أزال أسمعه . الثالثة لا أعود أسمعها .